قصة قصيرة

الطوفان

هاشم غرابية

(١)

الشمس المائلة غرب شرفة البيت الكبير لا تؤذي العين.. ريح باردة تنحدر من فوق التلة التي تلي البيت الكبير تبشر القرية بليلة ماطرة. اعمدة رقيقة من الدخان تتصاعد من الطوابين فترتفع قليلًا ثم تزحف مع الريح نحو الشرق ولا تلبث ان تتحد في غيمة صغيرة وتنداح مبشرة برطوبة الجو.

رائحة حوارة: خبز ونار.

هذا المساء الشتائي حافل بالاصوات. الرجال يفرشون الحظائر بالتين ويتفقدون مواشيهم، بعضهم يحفر قنوات لآبار الجمع، النساء يلقين بالقش الى النار بكرم وينادين الأولاد، الاطفال يغنون للغيث.. الاصوات مختلطة بتباشير المطر، فرحة، مندمجة، متناغمة مع صوت الريح، فتشكل خلفيّة رائعة لصوت مزمار دحام الذي وزع القطيع وأسند ظهره للصخرة الكبيرة القائمة بين البيت الكبير وخرابه مراغة، دسّ مبسم مزماره تحت شاربه الكث الذي خطّه بياض خفيف.

عزف المزمار اشواقاً عتيقة في قلب دحام وسكبها دافئة ناعمة في اذن ست الحسن فاختلج الألق في عينيها وتحركت الستارة على نافذة (العلية) في البيت الكبير، هذا البيت الذي لم يتأثر يوماً بتبدل الفصول، لا حين كانت ايامه كلها حصاداً ولا حين استكان لتساقط الاوراق.

اليوم كل شيء في البيت الكبير هامد الّا (قاف) البيك المفخمة، وعيون ست الحسن الجميلة وإن كانت القاف المفخمة قد تراجعت كثيراً امام الألق الجديد الذي تفتح في عيون ست الحسن، الا انها ــ اي القاف ــ ما زالت تقلقل السكون في هذا المكان الهادىء.

دحام كان يربت على مخارج اللحن في مزماره وعيناه معلقتان بالشرفة، ساعة ارتفع صوت خليل في القرية باحثاً عن ثوره. دحام حين يرنو الى ست الحسن يشعر وكأنه يرنو الى عالم آخر، ليس عالم البيت الكبير الذي يجهله، لكنه عالم خال من المجانين. عالم بريء من مرض الخوف الذي حطّ على القرية ولا يعرف له علاجاً، ويثير مرآها مشاعر غامضة غائرة بعيدا في نفسه، هكذا كان يراقبها كالمسحور، حتى انه لم يتنبه لصوت خليل الّا حين وقف امامه صارخاً.

ــ الثور. الثور قيقب يا دحام.

ــ ثورك ما سرح اليوم مع العجّال!

دحام غير راغب في ان ينقطع عن عالمه المسحور، اعاد مبسم المزمار الى فمه.

غضب خليل لأنه تعود من دحام ان ينفذ ما يطلب منه دون استفسار ولا رد.

ــ يا ثور إلْحَق الثور قبل ما يبعد. الثور قطع الوادي.

رد دحام بلهجة عالم:

ــ الجردان نقلت بيوتها من بطن الوادي للشفا. وأخاف السيل يطفح.

سحبه خليل من كمه فنزل دحام عن الصخرة، صاح خليل:

ــ عامل حالك فهيم يا قاروط البين. إلْحَق الثور لا تجنّني.

نتر دحام يده.

— بقول السيل لا بد يطفح، اذا ما صار طافح.
استشاط خليل غضباً ورفع قبضته في وجه دحام.
— قول بتخاف.
امسك دحام بزند خليل، لمعت عيون دحام بغضب مفاجيء، لم يدر خليل كيف يردّه، صاح خليل علّه يرهب دحام.
— جبان.
لوى يده ورفعه بيد واحدة، قذفه الى الارض فتدحرج خليل المسكين مع المنحدر، المسكين لم يدرك انه يحدّث دحام على مرأى من ست الحسن!
دحام طرح الرجل وراح يخب مثل جمل هائج على الارض الباردة الرطبة، رآه الناس يركض باتجاه الوادي فعرفوا انه ذاهب للبحث عن ثور خليل.
تصرف مؤذ لم يعهده احد بدحام من قبل، صحيح ان له جسم ثور ورأساً من صخر لكنه لم يستعمل قوته تلك لاثبات حق له، او ازهاق باطل وقع عليه، كان يستكين مثل طفل اذا ضربه احدهم، كائناً من كان قوياً او وجيهاً، ضعيفاً او مستضعفاً. لم يفطن احد الى ان هذه القوة الهائلة التي يمتلكها دحام ممكن ان تستعمل لغير العمل وحمل الاثقال وترويض الثيران او للوقوف في وجه خيول المهاجمين لحوارة. والصمود تحت لسع سياط الدرك ولكمات الآخرين او القفز من امام نار طبنجاتهم وبنادقهم.
أن يستعمل دحام قوته ضد احدهم! هذه ظاهرة تستحق الوقوف وتستحق ان يعاد تقييم الرجل على اساسها، وقد يعطي اعتباره ويعترف له بحقوق كالتي لهم اذا اصر على فرض نفسه عليهم.

(٢)

كان ابو دعاس يرعى مهرته المدللة على جانب الوادي ويتنشق الهواء الرطب معللا النفس بليلة ماطرة حين رأى دحام يسوق امامه ثور خليل على الجانب الآخر من الوادي. فجأة توقف دحام وارتمى يلصق اذنه بالارض.
صاح به ابو دعاس:
— اقطع الوادي يا لعين الحرسي، الشمس غابت والليلة شتّاية.
رفع رأسه عن الارض وهدر صوته:
— السيل هادر يا بو دعاس.
امسك ابو دعاس شكيمة المهرة التي انتصبت اذناها وأخذت تدق الارض بحافرها الامامي وصاح:
— استعجل، اقطع انت والثور يا دحام.
— المد وصل والوادي عريض.
— صاير تخاف يا دحام؟
— دحام ما يخاف.
(دحام ما يخاف) همس بها لنفسه وأغمض عينيه فاهتزت ستارة شباك ست الحسن في مخيلته، صاح:
— ما نا جبان.
دفع دحام الثور امامه، ومع اندفاعهما اهتزت الأرض بقوة. وصل المد وكأنه على موعد مع دحام.
صهلت المهرة وصرخ ابو دعاس مذعوراً:
— ارجع يا قاروط ارجع.
لكن الماء غمر ساقي الثور، حاول دحام ان يرد الثور عن التقدم، الثور احس الخطر وحاول ان يرجع لكن دفقة الماء التالية كانت تتهاوى مسرعة وانهدت مثل جبل المهد: غصت جنبات الوادي دفعة واحدة وغمرت دحام والثور.
امتطى ابو دعاس مهرته الجموح وركض الى القرية صائحاً:
— يا هابين الريح وين راحوا..! دحام جرفه السيل.
خليل كان اول القادمين، صاح بمن معه:
— الثور يا الربع، الحقوني.
طار خليل على صهوة فرسه ولحقه اثنان من الخيالة وتتبعوا الثور الذي تقاذفه الموج، صاح اول من وصل الى حافة الوادي:
— اصمد يا دحام اصمد.
تشبث دحام بصخرة كبيرة تقوم في مجرى الوادي ارتفع الماء العكر محاولًا زحزحة اقدامه فمال متكئاً على عصاه الغليظة القوية الطويلة، اشتد هدير التيار وارتفع منسوب الماء يفترق من بين ساقيه مراوداً اياه عن وقفته المتصلّبة لكن دحام يزداد تشبثاً، وتزداد عصاه توتراً تحت ثقل جسمه وقوة ضغطه.

المياه المتدفقة تتطاير اسهماً غليظة تضرب جسمهُ الكبير، التيار يضغط على فخذيه ويمزق سروالـه الفضفاض، يمسكه التيار من جذعه ويضغط محاولًا جرفه. فتتقوس العصا كثيراً بين صدره والصخرة، مثل شلال يندفع الماء على ظهره... يخضلُّ رأسه ويندفع شعره الكثيف الطويل مع التيار للأعلى ويعود قوس الشلال نازلًا الى مجراه على بعد من الصخرة التي يرتكز اليها دحام.

ـــ الامطار غزيرة جداً على جبل عجلون.

هذا ما قدّره أحد الرجال الذين وصلوا لنجدة دحّام، هذه الظاهرة معروفة جيدا لدى اهالي حوارة، يصل السيل قبل ان تهطل الامطار، واحياناً يفيض الوادي ولا تهطل الامطار. اما هذا المساء فيلمع عند الافق الغربي بريق يضيء وجوه الناس المجتمعين بلون ازرق للحظة وينطفىء مخلفاً وراءه نور النهار الذاوي. يقصف الرعد فيهتف الناس.

ـــ سبحان من سبح الرعد والملائكة من خيفته.

ـــ اصمد يا دحام اصمد.

يقول صوت متوتر النبرات.

ـــ وادينا وإحنا عارفينه اول دفقة تظل قوية.

تضاء السماء بوهج البرق المقترب فتلهج الحناجر:

ـــ رحمتك يا رب.

مع الغسق الهابط يبدو دحام منحنياً على عصاه، وعصاه تنحني لتصنع مع جسمه نصف دائرة فوق الصخرة. فيتزحلق التيار من فوق رأسه مجرداً اياه من ملابسه ومحاولًا سلخ جلده اذ لم يستطع اقتلاع جسده.

يدا دحام تتيبسان على العصا والعصا تكاد تنقصم على ضخامتها ولا من يستطيع ان يتقدم بحل ناجح او عملية انقاذ جريئة.

من يجروء على الخوض في هذا التيار الجارف؟ ومن يجيد السباحة في حوارة البعيدة عن الاماكن الوفيرة المياه. فقط هناك من يجيد العوم في غدير صغير او من تعلم مبادىء اولية للسباحة في نبع (راحوب).

عملية انقاذ مثل هذه لم يكن ليقدم عليها الا مجنون مثل دحام، والمشكلة ان دحام هو الضحية الآن.

كانت الحبال تدور وتقذف في تيار الوادي فلا تكاد تصل نصف المسافة بين الضفة ودحام. محاولات كثيرة باءت بالفشل، ربطوا الواح الخشب بالحبال وقذفوها، لكن التيار كان الأقوى، وعزمهم قصر عن المسافة.

تجهمت السماء وهوى قرص الشمس وهبط الغسق ثقيلًا بطيئاً وخفتت ضجة المجتمعين على ضفة الوادي وارتفع هدير التيار مختلطاً بقصف الرعد وصوت هطول المطر. ذعر الناس وكأن المطر فاجأهم، رموا حبالهم وأخشابهم بعشوائية يائسة والتيار يجرف كل شيء.. الحبال ترتد خائبة، وتمر من امام الجمع اغنام اتى بها التيار من المناطق العليا، وأخشاب وأثاث بسيط.

مرة، نشبت خطافة حبل بصندوق كبير مرصع بالصدف يستعمل لحفظ الملابس، فرح به من ناله: تشجع الآخرون على الاصطياد في التيار الصاخب، احدهم اصطاد شاة ما زال بها بقية حياة وآخر انتشل باباً خشبياً صالحاً وارتفع صخبهم من جديد حتى انهم لم يأبهوا للمطر المنهمر بغزارة.

تلهوا باصطياد ما يحمله التيار الجارف من اشياء حتى اسفّوا وتزاحموا يلتقطون كل شيء.

(٣)

ست الحسن؛ تناهى اليها في عزلتها صوت الجلبة التي دبت في القرية، وعرفت ما حدث، فوقفت على شرفتها تستطلع التطورات.

من بعيد من عند الوادي جاءتها اصوات مبتورة لم تستبن منها حقيقة ما يجري.

ـــ سرير جديد.

ـــ دحام.

ـــ العنز طافية.. اتركها..

ـــ إلحق الحبل.

ـــ اصمد.. امسك.. ابتعد.. اقترب..

ـــ شلال.. صخرة..

ـــ دحام.. يا ناس.

اعتملت في نفس ست الحسن الرغبة في عمل شيء ما. لم تشعر بمكانة دحام عندها كما تشعر بها الآن. تحس انها تكاد تعمى لو لم تَرَ عينيه او تختنق لو انقطع صوت مزماره، ان انغامه المسائية على تلك الصخرة هي الخيط

الذي يربطها بالحياة. ان صورته هي الرديف الحي للبطولة والنقاء اللذين كونتهما لها مطالعاتها وأحلامها.

الحيرة والتردد والخوف القديم من الناس الذي رضعته، الرعب من الحياة الذي ضخمه لها فقدان اخيها وموت امها وتصرفات ابيها.. هذا الماضي كاد يكبل محاولاتها لشق الشرنقة وشعرت بالاختناق، كتلك اللحظات الرهيبة التي عاشتها تحت الماء في طبريا حين هددها صديقها الاول بالموت اذا باحت بسرة. وعاشت اللحظات التي يعيشها دحام تحت الماء فارتجفت.

ظلت لوهلة غير قادرة على التماسك. والآن هي تراه بعين روحها بطلًا يقاوم الماء، تراه الآن كما رآه الاطفال دائماً. بطلًا قوياً ترتسم صورته على خلفية من النقاء والتجرد كونتها في حزمة الشعاع المتسرب الى داخلها من وهج الحياة.

— لن تخرجي.

صاح بها البيك مخترقاً عزلتها وكأنه يقرر ما يجول بخاطرها.

ارتجفت، ازاحت يده من طريقها وهبطت الدرج مجتازة لحظة التردد والخوف. لحقها البيك وتهالك على الدرج، امسك ذراعها...

— ارجعي.. لا تفضحينا.

لفّت شالها حول وجهها وقالت بحزم:

— الفضيحة! إي حدث أهون من التعفن هنا.

— هل تسعين لانقاذ راع لا يأبه له احد؟

— بل اسعى الى انقاذ نفسي.

— لكنه دحام (قال والدها برجاء بعد ان عرف صلابة تصميمها).

— لن ينقذني من عفن بيتك الكبير الا رجل كانت الشمس هوايته.

— ابنتي، حبيبتي، اقبل رأسك، انه الموت هناك...

— الموت هناك افضل من الحياة هنا.

وفتحت الباب الكبير فأصدر صريراً عتيقاً واندفع تيار هواء قوي الى الداخل

— الموت بلا فضائح افضل.

صاح بها والدها وهي خارجة تقطع القنطرة الى القرية، صرخت:

— الموت هو الموت.

حرك الهواء الباب الكبير فأصدر صوتا مزعجا جعل البيك يلتصق بجدار البوابة هلعا:

— لن تتمكني من انقاذه.

كان صوت البيك مخنوقا بالخوف، وتهاوي مكتوماً على عتبة الباب الكبير.

— اني انقذ روحي.

عبارتها الاخيرة ذرتها الريح في طرقات القرية ولم تصل الى اذن ابيها، اشتدت الريح واصطفق الباب الضخم بقوة، طقطقت عظام عيسى البيك بين الخشب الثقيل والعتبة الحجرية ولم يسمع أحد انينه الواهي الذي ما لبث أن همد. وظلت البوابة نهباً لعبث الريح.

(٤)

عاد الصغار يجرون غنائم ذويهم، تبعهم النساء، بقي الرجال وبعض العجائز يتقبعون بالخيش ويتشاورو فيما يفعلون: ايسلمون امر دحام للماء ويعودون؟ ام ينتظرون علّ الماء يخف ويهبط عنف التيار، يتساءلون اذا ما كان دحام ما زال صامداً ام ان التيار جرفهُ؟ اذ ان الظلام حلّ وحال بينهم وبين رؤية ما يفعل طوفان الوادي. لكن صوت الشلال المنحدر عن جسده كان مسموعاً.

رجع خليل الى حيث يتجمع الناس، وكان معه فارسان آخران، كلهم يلهثون وينزفون ماءً فوق خيولهم المتعبة.

قال خليل: الثور يسبح.

قال الثاني: لولا الخيل لما لحقنا به.

صاح الثالث بالناس المبحلقين بهم كالبلهاء:

— دحام يا ناس! شو صار له؟

لم يكن من شيء ينبيء عن دحام سوى صوت شلال الماء المندفع فوق جسده العاري، والغسق بدا داكناً اكثر من المعتاد ومبكراً بهبوطه.

— لا حول ولا قوة الا بالله.

— ضاع دحام!

— وصوت الميّ؟

— الميّ تضرب بالصخرة الكبيرة!

هموا بالعودة لكنهم رأوا شبحاً قادماً. لم يدركوا في البداية من يكون، افسحوا لها مكاناً على الضفة دون ان

ينبس بكلمة.

همست عجوز:

ـــ ... انها تجيد السباحة..

قالت اخرى:

ـــ ... طبريا..

قالت ثالثة:

ـــ استغفرن الله يا عجايز.

قالت رابعة:

ـــ كرامات اولياء الله كثيرة..

حاول احد الرجال ان يرد ست الحسن عن حافة الماء:

ـــ لا يجوز، الزلم وين راحت؟

قرأوا في حركتها تصميماً على فعل ما.

قال الرجال كالمعتذرين:

ـــ بعد قليل يهبط التيار:

ـــ الوادي بعد الدفقة الاولى، اشوي ويهمد.

ـــ وادينا وإحنا عارفينه.

سارت ست الحسن بمحاذاة الماء، لحقوها مشدوهين. اشارت بيدها، جمدوا، نظرت الى مكان صوت ارتطام الماء بالماء، رأت ذاك الشكل المعتم يقاوم خلال الغسق الداكن وبدا وكأنها تراه ملفعاً بالظلام، كانت تنظر بعين نفاذة قادرة وكأنها ترى ما وراء قدرة العين المجردة. كانت تراه بوضوح كاف بينما ظلت عيناها متيقظتين، وكأنها تعتقد لو انها رمشت لحظة في هذا الليل الهابط بكثافة وبشاعة لفقدته.

راقبته بدقة وهو يقاوم وركزت عليه بصرها ببطء شديد كانت تراه يغوص اكثر وأكثر في الماء. الماء الى وسطه.. ثم، ثم غاب عن نظرها فلم تكد تستطيع رؤيته.

هتفت:

ـــ دحام.

وهرعت الى العمل. مشت ست الحسن على الضفة بعكس التيار تحركت جمهرة الناس وراءها فأوقفتهم دون ان تستدير لهم. مشت فمشوا. وقفت فوقفوا ثم عاودت المسير فلم يتبعها احد، الكل هاديء صامت، وصار واضحاً انها سيدة الموقف، الجميع يبدو عليهم الذهول وأنهم رهن حركتها وأوامرها غير المنطوقة وكأن الناس مسحورون بحضورها.

على بعد كاف ربطت الحبل بشجرة ضخمة. امسكت بالحبل وانزلقت في الماء، جرفها التيار، قاومت، قذفها الماء على جانب الوادي، ارتطمت بالصخور، سال دمها، ترنحت وتشبثت بالحبل، بدقة ركزت وجهها تجاه الصخرة الكبيرة في الوسط وقذفت جسمها في عمق اللجة، كان التيار سريعاً، قاومته، ارغمت التيار ان يجرفها تجاه الصخرة الكبيرة التي يقف عليها دحام، حاولت التشبث بظهر الصخرة، لكن التيار دفعها امام الصخرة فخلصتها نتوءات الصخرة من معظم ثوبها فصارت حركتها أسهل.

الدوامة الصغيرة المتشكلة امام الصخرة الكبيرة من دوران الماء العنيف حول الصخرة ابتلعتها. للحظة فقدت توازنها، مرتعبة مختنقة شدها التيار نحو القاع ثم قذفها، استطاعت ان تطل برأسها فوق الماء، كانت وجها لوجه مع دحام، ظنته ابتسم لها، جذبتها الدوامة الصغيرة للأسفل، تشبثت بالحبل، غاصت وغالبت بجنون، حين قذفها تيار الدوامة للأعلى كانت بعيدة عن دحام، كانت على الجانب الآخر من الصخرة جذبت الحبل وحاولت الاقتراب فاكتشفت ان الحبل ناشب بنتوء صخري. اطمأنت الى متانته، الدوامة انجزت مهمة كان من الصعب ان تخطر على بالها!...

تنشقت ست الحسن الهواء فأحست بلذته مضاعفة لانه كان مختلطا بانفاس دحام. تمنت لو يراها ويقذف بجسمه على الحبل، لكنها شهقت وتمنت الّا يفعل ذلك، لقد ادركت ان عليها المحافظة على الحبل مشدوداً، فلم يسمح لها التيار بفرصة ربطه، أكملت الدائرة حول الصخرة الكبيرة، ما السبيل الى بقاء الحبل متوتراً؟ الناس على الضفة لا يرونها، ولا تستطيع ايصال صوتها لهم، لفّت الطرف السائب على كتفيها العاريتين، واعتمدت على توتر الطرف الآخر القادم من الضفة والملتف حول الصخرة، سبحت مبتعدة عن الصخرة، الطرف السائب مشدود الى جسدها ويزداد طولًا كلما تقدمت نحو الضفة. كانت تفك دائرة من طياته عن كتفيها. لقد كانت تسبح متلولبة على طرف الحبل القوي بطريقة عجيبة، مهمة ليست سهلة على دحام نفسه لو كان يجيد السباحة، كانت دوائر الحبل تنحل عن جسدها كلما تقدمت وتفقدها الأشياء التي

يحملها التيار ما تبقى من ثيابها.

قرب الوصول الى الضفة ارتطمت بجسم صلب، كانت خزانة كبيرة سرقها التيار من مكان ما. غاصت ست الحسن في الماء واهتز الحبل وفلت الطرف السائب عن جسدها وتراخى الطرف الآخر الذي كان متوتراً، غالبت وارتفعت فوق التيار، غالبت وارتفعت فوق الماء، تنشقت الهواء، تلمست الحبل فوجدته متراخياً يحاول الانسياب مع التيار، شعرت بأنها خسرت المعركة وودت لو يجرفها التيار وتضيع الى الابد، لكن خشبة طويلة كانت تمتد من الضفة وصوت يصيح:

ـــ تمسكي، وصلت الضفة. هاكِ الخشب.

غطست، امسكت بالحبل السائب، طفت على مسافة اخرى للأمام حيث جرفها الماء. هناك كانت مئات الايدي بانتظارها ممتدة بالحبال والاخشاب، أمسكت، انتشلوها، رمت عليها احدى النساء قطعة خيش مبلول لتستر عريها، أخذ الرجال الطرف السائب وربطوه بالشجرة، فهموا ان عليهم شدّة بقوة، شدوا جميعاً على الحبل حتى توتر الى آخر مدى على سطح الماء بين الصخرة والشجرة.

ـــ ما الخطوة التالية؟

حين سألوا لم يجدوها. كانت قد رمت بنفسها للتيار مرة اخرى سبحت بين طرفي الحبل المتوازيين والتيار يؤرجحها فتزوغ بمهارة عن طريق ما يحمله التيار من اشياء، تنز دماء جروح جسدها المزرق من برودة الماء.

ـــ دحام.

صوت ملائكي قادم من عالم آخر، تراخى، تهاوى، ارتعبت، تراجعت، خافت ضخامة جسده، هالها الجرح الذي احدثه تيار الماء في ظهره، لقد كان ينزف.

ـــ امسك جيداً.

أمرته وسبحت تجره بين طرفي الحبل المتوازيين، كان التيار يذهب سريعاً بدماء جروحهما فلا يبين لدمائهما اثر في الماء العكر.

(٥)

شعرا بالامان وأمتلآ بالراحة. خرجا من رعب السيل الجارف، حطّا على الضفة مترنحين منهكين.

كانا ينظران الى بعضهما بعجز. خفّت حدة الارتعاش في جسديهما وبدا كأن الحياة عاودتهما من جديد.

كانت الفوانيس تشكل دائرة واسعة من نقاط الضوء حولهما. تقدم بعض الجريئين ورموا عليهما قطع الخيش التي كانوا يتوقّون بها المطر. والتأمت دائرة الفوانيس من حولهما، شعرا ان نوعاً جديداً من الحياة قد عاودهما: حياة قاتمة ومجهولة ولكنها قوية.

عمان (الاردن)